حصن الاخيضر بالعراق

وحصن عين التمر

من فتوح خالد بن الوليد

إنّ حصن الأخيضر هو حصن جبّار الآثار ولهيئته فخامة وعظمة ما زالتا تستثيران همم الآثاريين [1] والمؤرخين في بلاد الشرق والغرب. فقد عُني بوصفه كثير من أولئك وقليل من السياح، وأُلّفت فيه كتب وحُبّرت مقالات بمختلف اللغات، ولم يعرف أحد إلى يومنا حقيقة تاريخه غيرنا، فقد لبثنا سنين نتحرّى حقيقته ونتوخى تاريخه حتى وقفنا عليهما وقوفاً مؤيداً باليقين.

إنّ الأخيضر من العمارات التي كان يجمع بين منفعتين: الكنى والتحصن للدفاع، فهو في طف [2] بادية العراق الغربيّة غربي نهر الفرات، على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من غربي مدينة «كربلاء» الجنوبيّ. وفي كربلاء — كما هو معلوم — مشهد الحُسين بن علي — رض — وعلى مقربة حصن الأخيضر وادٍ تتجمّعُ فيه مياه المطر يعرف بالشعيب تارةً وبالأبيض «تصغير أبيض» تارةً أخرى، وفي حقيقته أحياناً وهي جمع حمي، وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا مطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ومنعَ الرمل الهائم أن تنشّفه فإذا بُحث ذلك الرمل أصيبَ الماء[3]. والوادي الأبيض ممتد نحو الغرب مسافات بعيدة. متصل بوادي حَوران، وفي حِفافيه تنبتُ مراعٍ معشوشبة

---

(١) نسبة الى الآثار القديمة، أما «الآثاريون» هم الذين يشتغلون بالآثار النبوي الشريف أي الحديث والعرب تنسب ذوي الحرف والفنون والمذاهب الى الجمع كالاصولي والامشاطي والشعوبي والفوكي

(٢) طف النهر والارض شاطئه وما ارتفع من جانبه قال الزمخشري في أساس البلاغة «قتل الحسين - رض - بطف الفرات وهو شاطئه وما ارتفع من جانبه» (٣) راجع كتاب الكامل للمبرد ج ١ ص ٢١٠ من طبعة الدالجوني

تنتجعها عدة قبائل أشهراً من كل سنة ، والظاهر لنا أن اسم « الأخيضر » منتزع من الخضرة التي تكون في تلك المراعي .

وإن موضع حصن الأخيضر مبنيٌّ لطرق القوافل والطرق الحربية في قديم الزمان. ولا تزال آثار الأعلام والصوى والمناظر شاخصةً في بعض تلك الطرق ، والحصن نفسه اليوم في صحراء بعيدة عن الفرات ، وقد ازداد بعده عنه بعد تحوُّل مجرى الفرات نحو الشرق . ومن المعلوم أن الحسين بن علي قتل في طفّ الفرات أي شاطئه وقبره اليوم لا تقل المسافة بينه وبين الفرات عن خمسة عشر كيلومتراً ، فذكرُ حصن الأخيضر هناك وإطلاله على البادية وحصانته ومناعته تذكرنا الحروب الفارسية الرومية والحروب الفارسية العربية ، والجواسق والمسالح والحصون التي كان الفرس يتخذونها للدفاع عن امبراطوريتهم من الشرق وتُعيدُ إلى أذهاننا أخبار الشيحَن التي كانت تشحَنُ بها الحصون للامتناع والتحصُّن ومنع العدوّ من الايغال في البلاد لأنه يخشى أن يدهمه المتحصنون من ورائه ، وفي ذلك ما فيه من الهلاك .

صفة حصن الاخيضر

قلنا إن الأخيضر من العمارات التي كانت تجمع بين منفعتين السكنى والتحصن والدفاع . وهو مربع الشكل طول ضلعه نحو من ١٦٩ متراً وسورُه بسور سمكه[1] ٢١ متراً وثخانته أربعة أمتار ونصف متر في قاعدته ، وعلى ثمانين متراً من الحصن آثار سور ثان خارج ذي ثلاث أضلع ، وداخل السور الأدنى قصر عظيم مشيّد مستطيل شكله طوله ١١٢ متراً وعرضه نحو من ٨٠ متراً وهو متصل بالسور المذكور في وسط الجهة الشمالية ، وبينهما في سائر الجهات الثلاث أفضية ، الفضاء الشرقي والفضاء الغربي عرضهما ثلاثون متراً والفضاء الجنوبي عرضه نحو من خمسين متراً . والقصر كله مبني على طبقتين أصليتين وكان على الطبقة الثانية بعض العليّات[2] التي كانت تتخذ مناظر ومراقب ، وأقسامه كثيرة محكمة التنسيق

(١) السمك هو الارتفاع ، وقد أدى مسيو اللنة الفرنسية الى استعماله بمعنى « التخن والثخانة »

(٢) العليات والعلال جمع « علية » وهي الغرفة أي بيت في الطبقة الثانية فما فوقها

غالب عليها التناظر إلاّ الذي أصابته المرمّة وغيرت من شكله حاجة الناس بمقتضى زمانهم ودولهم ، وأرى أن النظر الى « تخطيط » ذلك الحصن الطائل وقصره أدل من غيره على تبين

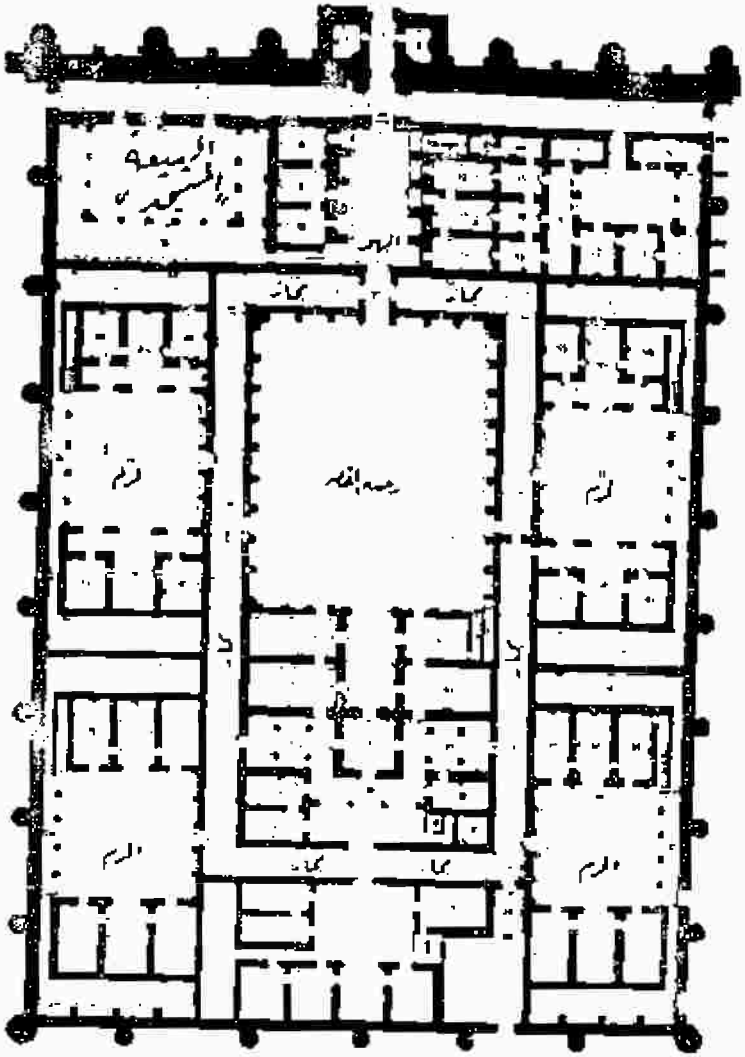

تخطيط حصن الاخيضر بالعراق

أقسامه وتصوّر خامته وتقدير ضخامة عمارته « راجع تخطيط الحصن » .

إن سور حصن الأخيضر الأدنى دو سلسلة من البروج متصلة من كل جوانبه ، وفي كل

ركن من أركان السور برج عظيم قطره نحو من خمسة أمتار ، وفي وسط كل ضلع من أضلاع السور برج كبير ذو باب داخل ، وبين برج كل ركن وبرج وسط الضلع خمسة أبراج يزيد نصف قطر كل منها على ثلاثة أمتار ، فعدّة البروج التي في سور الحصن من كل الجهات ٤٨ برجاً . ثم ان القصر نفسه قد بني في جداره الخارج بروج صغيرة ، وبها يكون له ثلاثة خطوط للدفاع — كما يقال اليوم — . ومما زاد السور منعة أنه بعد عشرة أمتار من سمكه فوق الأرض منقسم الى جدارين : داخل وخارج بينهما ممر ممتد كما يمتد السور ومتصل بغرفة مدوّرة داخل كل برج من البروج ، وفي جدران تلك الغرف والممر كوًى حربية ضيقة تتخذ لرمي السهام وغيرها من رميات الحروب الدفاعية ، وكان هذا الممر مؤزّجاً أي مبنيًّا أعلاه بعقود متصلة ، وكذلك سائر الغرف والحجر الكثيرة والأبهاء ، فلم يستعمل في سقوفها الخشب لأنه يمكن الاحراق ومعرّض للبلى والنخر وغير ذلك من آفات العمارة .

***

وحصن الأخيضر وسوره جميعاً مبنيان بالحجارة غير المهندمة والجصّ إلاّ عقد النهر الكبير وهو الايوان وعدّة عقود أخرى فانها مبنية بالآجر المعروف في العراق بالطابوق[1] وفي مصر بالطوب ، وكانت الجدران مُسيعةً بالبورق في أكثر أجزائها ولا تزال آثار هذا الطلاء باقية على أكثر أقسام الحصن ، وكان على أشكال هندسية زخرفية في بعض المواضع كما رؤي في أروقة قسم من أقسام القصر الشمالية الغربية ، اتخذ مسجداً في العصر الاسلامي بعد أن كان غير ذلك ، على ما نحن ذاكروه في مقالنا هذا ، وفي حفائر[2] حجرتين من الحجر الكثيرة . والوصف الموجز لذلك الحصن العظيم يُثبتُ على إيجازه أنه كان غاية في الحصانة والمناعة .

وما ظنك بسور نحن قاعدته أربعة أمتار ونصف متر ، وسمكه واحد وعشرون متراً ، وبحصن مساحته ثمانية وعشرون ألف متر مربع وتسعمائة متر مربع ؟ إذن كان يمكن الدولة

---

(١) قال الجوهري في الصحاح « الطابق الآجر الكبير فارسي معرب » وفي القاموس « انه معرب » كالطابق

(٢) الحفائر جمع الحفيرة ، قال الجوهري « الحفيرة : عقد الطاق البيي ... »

منظر الركن الشمالي الشرقي من حصن الأخيضر لسوره الأعلى من خارج

التي هو لها أن تجمع فيه ألوفاً كثيرة من الجنود والرعية أيام الحصار الذي يباشرهُ العدوُّ . وهذا أحد الأدلة على أنه كان حصناً لدولة عظيمة لأنَّ مئات ألوف الدنانير لا يُقامُ لها وزن في بناء مثل هذا الحصن ، فبناؤه خارج عن طاقة الرعايا والاغنياء والأثرياء بله أنَّه مبني في ميناء طرقٍ تجارية وحربية في صحراء غير مضمونة الماء ولا الاتصال بالمدُن والمزارع

تاريخ حصن الأخيضر

ليس من شك في أنَّ الآثار العتيقة كحصن الأخيضر تستعصب على الباحث والآثاري معرفة تاريخها بخلوّها من كتابة منقوشة أو آثار مكتوبة تعين على فهم التاريخ ، ثمَّ إنَّ كون الحصن المذكور على طرق صحراوية دارسة لاهل الناس إيّاها ، زاد تاريخه استبهاماً واستعجاماً ، ولكنَّ عظمته وفخامته وصعته حببت الآثاريين إليه فانه إحدى العاديات العجيبة في الآثار العتيقة ، وقد اختلفت الاقوال في تاريخه كما اختلفت في القصور والعمارات القائمة في مشارف الشام العتيقة العريقة في القدم ، ولم يكن الاختلاف مقصوراً على المؤرخين بل جاوزهم الى الآثاريين الذين يستدلون بطرز البناء وفنون الزخرفة والريازة قبل استدلالهم بالكتابة والرقم ، فلم ينفصل بعضهم عن بعض في النزاع ، ونحن نرى أن سبب ذلك هو أن القرون الانسانيَّة متصلة الحلقات بحيث يصعب على المتحرّي تمييز بعضها عن بعض بأوصاف مستقلة وتاريخ مضبوط ، وآخر رسالة مستقلة رأيناها مؤلفة في البحث عن تاريخ الأخيضر هي رسالة « مديرية الآثار القديمة » في العراق [1] ، على عهد مديرها الأستاذ الشهير ساطع الحُصريّ ، فقد جاء في الصفحة ٣٣ منها قول كاتبها « من الغريب أن تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط [2] ، بالرغم من ضخامة بنائه ودقة تخطيطه وأهمية موقعه ، لأنه لا توجد في القصر أو الحصن كتابة تدل على شيء من تاريخه كما لا يوجد في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة إشارات صريحة تدل عليه ، فانَّ أقدم الاشارات التي تدل على الأخيضر

(١) راجع الاخيضر طبع مطبعة الحكومة العراقية فيها ١٣ شكلاً و ٦ لوحاً ، سنة ١٩٣٧

(٢) بل هو غير معلوم أصلاً وفرعاً وضبطاً وغير مضبوط وسيأتي عليه

بصورة أكيدة ترجع إلى القرن السابع عشر حيث شاهده بعض الرُّوَّاد من الأوربيين ، ولهذا نستطيع أن نقول إن كل ما يعرف عن تاريخ الأخيضر لا يتعدّى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات » .

وذكر في الحاشية السياحين الذين رأوا حصن الأخيضر على حسب التاريخ فأولهم « بيترو دي لا ڤاله Pietro della Valle في أوائل القرن السابع عشر ، ونيبهر K. Neibuhr في أواسط القرن الثامن عشر ، وشيخنا الاستاذ لويس ماسنيون Le. Massignon سنة ١٩٠٨ والمس بل Gertrude Bell سنة ١٩٠٩ ، وفيوله M. H. Viollet ؛ وديولافوا M. Dieulafoy وموزيل Alois Musil ، وأوسكار رويتر Oskar Reuther بين سنة ١٩١٠ و ١٩١٢ .

لقد جاءت أسماء أكثر هؤلاء في مقالة عنوانها « قصر الأخيضر ورأي العلامة الآلوسي فيه » نشرت في إحدى المجلات العراقية الشهيرة [1] وقد جاء فيها أن المهندس الآثاري ديولافوا المذكور يذهب الى أن هذا القصر يرتقي الى الربع الأخير من القرن السادس للميلاد أي قبيل الاسلام . ويقول : ان الزيارة [2] وفن تزويق الأبنية كانا قد بلغا أوج الكمال منذ عصر سامرّا ، ومن ثمّ يتضح أن كل بناء لا ترى فيه الزيارة الاّ في بنيّها أو نقوشه فهو على الأرجح سابق للاسلام كقصر الأخيضر في العراق » ثم ذكر كاتب المقالة أن رأي المهندس فيوله على الضد من رأي المذكور ، فهو يعد الحصن والقصر من الأبنية التي شيدت في صميم العصور الاسلامية . وكذلك قول الآنسة « بل » المذكورة ، ثم أشار الى رأي الأستاذ ماسنيون في أن حصن الأخيضر ان لم يكن « الخورنق » أو « السدير » فلا يبعد أن يكون (قصر عنداد) ذا الشرفات ، ويخلص الكاتب الى رأي السيد محمود شكري الآلوسي وهو أن أصله (الاكيدر) باسم الاكيدر الملك الكوني الكندي ثم صحفه الناس الى (الأخيضر) وهو قول لا يصبر على النقد ، وختم الكاتب مقالته بأن القصر هو في سنة ١٩١٢ منتهى

---

(١) لغة العرب ، بغداد ، مج ١ ص ٥٥ سنة ١٩١٢ » (٢) قال المترجم لقوله مقترنة الزيارة « في الهند » وقد جاء في أمر من اللاعه « ورزت عليه وأصلحته . وهو راز البناء : رأسه وكذلك راز أهل كل صناعة وكان راز سفينة نوح جبريل ر — و — لانه يروز ما يصلحه ولانه راز الصناعة حتى أتقنها . وأصله راز كذلك في شأنك والذلك جمع على رازة نحو نس في ناسة »

قائمة [١] الرزازة الراجع أمرها الى فهد بك من قبيلة عنزة وهو أيضاً آخر حدود مديرية شفاثة ، وان فهد بك يزعم أن القصر له ، ومدير شفاثة قد استخص عين ماء عاورة له وهي العين الوحيدة التي ليس في مائها مادة كبريتية في تلك النواحي .

وورد في المجلة نفسها في أثناء الكلام على قصر (بلكوارا) بسامرا وعثور الدكتور هرتسفيلد عليه سنة ١٩١٣ وانه هو الأخربة المعروفة عند المعاصرين له باسم المنقور قول الكاتب :

« وهيئة هذا القصر بهيئة القصرين الشهيرين المعروف أحدهما بالمشتى (بتشديد التاء) الذي بناه يزيد الثاني من خلفاء الأمويين والأخيضر المنسوب الى الأكيدر صاحب دومة الجندل إلاّ أنه أكبر منهما بكثير ، وكان الدكتور هرتسفلد ذهب الى أن أصل ذينك القصرين على مثال السدير أو السدلي أو الخاوي بكيس الذي وصفه صاحب مروج الذهب »

وقد ثبت عندنا إن الدكتور هرتسفلد لم يعرف موضع قصر (بلكوارا) [٢] فكيف يبني على ذلك الأفيسة وينظّر بين النظائر ويدخل حصن الأخيضر فيها ؟ إن قصر بلكوارا كان بالقادسية التي بين سامرا وبغداد ، قال الجهشياري (وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف ببركوارا . ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز بالله وجعل أعذاره فيه وكان أحسن أبنية المتوكل وأجلّها) وقال قبل ذلك «وبين القادسية وسرّ من رأى أربعة فراسخ والمطيرة بينهما [٣] » فكان إذن بين سامرا والقادسية زهاء اثنين وثلاثين كيلو متراً ، والذي زادنا استغرابا أن أحد مؤرخي فن العمارة الاسلامية من الاوربيين الفضلاء عدّ قصر الأخيضر بناء اسلامياً وقاس به غيره للاستدلال على عروبته واسلاميته فنّا وتاريخاً [٤] مع أن بين « طاق إيوان » الذي ذكر صورته الفاضل المذكور ، وجدران الأخيضر مشابه واضحة المعالم [٥] ، وطاق إيوان من الأبنية الساسانية كما هو معلوم .

---

(١) القائمة : رتبة القائم بالمقام (٢) راجع مجلة لغة العرب « مج ١ ص ١٣٤ — ١٣٨ »

(٣) أصول التاريخ والأدب « مج ١ ص ١٤٠ » وهو من مجموعاتنا المخطوطة ، فضلا عن كتاب « الديارات » لعلي بن محمد الشابشتي .

(٤) K. A. C. Creswell Early Muslim Architecture, V. I p. 50 , 280

(٥) المرجع المذكور « ج ١ ص ٢٨٢ »

وقد احترى حصن الاخيضر على دورين من أدوار العمارة — كما يسمونه اليوم — فان واصفاً وصفه في شهر آذار «مارس» سنة ١٩١٣ بأن فيه إيواناً معقوداً من الطابق «الطوب» عقداً محرّداً [١] وبناؤه أشبه شيء ببناء الايوان الذي في قصر الطليفة بسامرا بل هو هو . . . ونظن أن بناء هذا الايوان بعد قصر الأخيضر بقرن أو قرنين أو أكثر من ذلك ، لأن ليس فيه ما يشابهه قطعاً [٢] » . وكنا أشرنا الى أن البهو الكبير وهو الايوان مبني من الآجر .

وورد في رسالة الأخيضر قول كاتبها « نستطيع أن نجزم بأن جميع مباني الأخيضر لم تشيد في وقت واحد، بل ان البناية الملحقة الداخلية كالبناية الاضافية الخارجية، استحدثت بعد اتمام تشييد القصر والحصن بمدة وذلك لأن وضع هاتين البنايتين وتخطيطهما لا يتناسبان بوجه من الوجوه مع التنظيم الدقيق الذي يشاهد في تقسيمات القصر والحصن والتناظر التام الذي يسود تخطيطهما باستثناء هاتين البنايتين . إذاً فيحق لنا أن نقول : انهما لم تدخلا في المخطط الأصلي ولم تشيدا إلاّ بعد اكمال القصر والحصن بمدة بناء على الحاجات الجديدة التي تولدت خلال استعمال القصر وتطورات الاحوال [٣] .

إن في هذا القول تصريحاً بدوري العمارة اللذين أشرنا اليهما ، على أن في كل ما قدّمنا ذكره من أقوال الباحثين اضطراباً ظاهراً واختلافاً بيّناً منعا أن تكون للباحث نتيجة محققة ونظرات مدققة . ومن الباحثين من ذهب الى أنه « قصر مقاتل [٤] » أو « قصر بني مقاتل » على تسمية أخرى ، وهو قصر وصفه ياقوت ومن بعده بأنه « قصر كان بين عين التمر والشام منسوب الى مقاتل بن حيان وهو قرب القطقطانة » وهو قصر مشهور بعرضه كان قرب الكوفة على الطريق بينها وبين الشام ، والقطقطانة تعرف اليوم بالقطقطانة وهي أقرب الى الكوفة منها الى موضع الأخيضر ، وما لنا نستمر على تسويد السطور فيما هو داحض بنفسه لأمور كثيرة منها جهل القائل بذلك المواضع والمسافات التي بينها وحقائق القصور والحصون

(١) في أساس البلاغة « بيت محرد : مسقف كالكوخ » وفي المعجم « تحريد الشيء : تسويجه كالطاق ومنه قيل بيت محرد أي مسقف » (٢) لغة العرب « مج ٣ ص ٣١ » (٣) رسالة مديرية الآثار ببغداد « ص ٣٧ » (٤) والبكري يرى قائلاً : ولربما سماه « خفان » على وزن حسان فذاك حصن آخر قرب الكوفة !

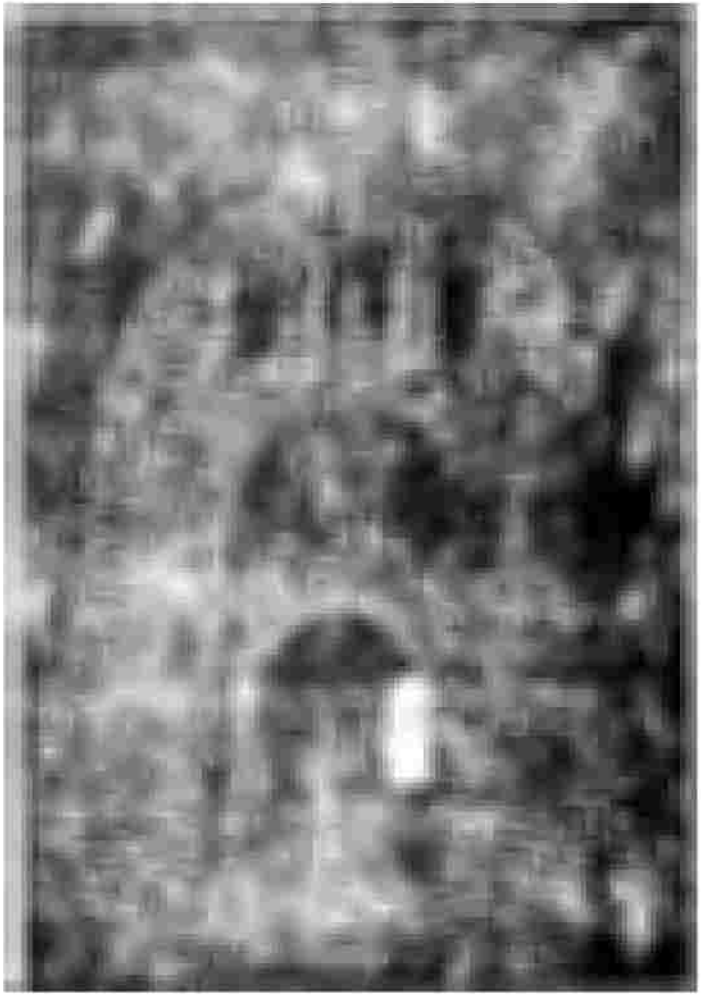

الايوان الاعظم في حصن الأخيضر وهو من الدور المعماري الثاني الذي دخل فيه الآجر أي الطوب . وذلك في العصور الاسلامية وفيه تقليد للبناء الساساني

واصطلاحات البلدانيين كقولهم « كان » مما يدل على الفناء والاندثار ، وأين قصر مجهول الحقيقة والموضع لفنائه ودروسه من هذا الحصن العظيم الراسخ القواعد المبني للتحصن والدفاع قبل كل انتفاع ولا تزال آثاره شاهدة بأنه حصن امبراطورية .

والحقيقة أنّ حصن الاخيضر وحيد الشكل والضخامة والهيئة في العراق ، فهو لم يُبن للدفاع عن مدينة عظيمة ولا عُرفَ في عهود الاسلام بناء مثله لسقوط منفعته وإنما بني للدفاع عن دولة عظيمة كالامبراطورية الساسانية قبل الفتوح الاسلاميّة ، جرياً على القواعد القديمة في الحروب بين الدول العظيمة ، — كما أشرنا اليه في أول مقالتنا .

وهذا الحصن الضخم الفخم كان يُسمّى « حصن عين التمر [1] » وقد فتحه خالد بن الوليد القائد العظيم في سنة ١٢ هـ بعد أن فرغ من حرب المرتدّين باليمامة وارتفع نحو الطوف التي بين غربي العراق وبادية السماوة ، وكونه — أعني الحصن — مضافاً إلى عين التمر إنما جرى بسبب قربه من تلك البلدة وسيأتي فيما نقصّ من أخباره أنه سُمّيَ حيناً بقصر شفاثا وهي إحدى قرى عين التمر ، وذلك يدل على أنّ عين التمر كانت على مسافة ما منه وكان هو مستقلاً عنها لأنه بني كما قلنا للدفاع عن حدود الامبراطورية الساسانية الغربية .

أخبار حصن الاخيضر

ومما أسلفنا من القول يعلم القارىء أنّ « حصن الاخيضر » من الأبنية الفارسية الكسرويّة ، وأن ضخامته وعظمته يمنعان أن لا يكون له ذكر في أخبار الفرس والفتوح العربية الاسلاميّة ، وأول ما نذكر من ذلك قول البلاذريّ « كانت عيون الطف مثل عين الصيد والقطقطانة والرهيمة [2] وعين جمل وذواتها للموكلين بالمسالح التي وراء السّواد وهي عيون خندق سابور الذي حفره بينه وبين العرب للموكلين بمسالح الخندق وغيرهم [3] »

(١) جاء في مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع « عين التمر » بلدة في طرف البادية على غربي الفرات وحولها قريات منها شفاثا وتدمر (عين التمر) بلد الدين ، أكثر نخلها الفسب ويحمل منها الى سائر الاماكن » . قال مصطفى جواد : ولا تزال قرية شفاثا عامرة قرب حصن الاخيضر ، وأما عين التمر فالظاهر أن عيونها غارت بعد القرن السابع للهجرة تدارت وقول بعضهم انها رأس الدين الحالية وهم

(٢) لا تزال « الرهيمة » معروفة بين القطقطانة والكوفة ، وهي المذكورة في شعر المتنبي

(٣) فتوح البلدان « ص ٢٩٦ » من طبعة المطبعة العامرة سنة ١٩٣٢

وفي معجم البلدان لياقوت ومراصد الاطلاع أن « خندق سابور في بريّة الكوفة حفره سابور ملك الفرس بينه وبين العرب من هيت فطفّ البادية إلى كاظمة مما يلي البصرة الى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح » .

ومن هذا يتضح بادئ ذي بدء أنّ حصن الأخيضر من تلك المسالح والجواسق التي بناها سابور لحماية مملكته من الجهة الغربية ، وهو سابور الملقب ذا الاكتاف الذي ملك في الدولة الساسانية من سنة ٣١٠ م الى سنة ٣٨١ ففي مثل هذا العهد الجليل يبنى مثل ذلك الحصن العظيم ، ولقد جاء في أخبار سابور أنه بعد أن افتتح حصن الحضر بل مدينة الحضر بحيال تكريت بين دجلة والفرات على نهر الثرثار سبى ابنة ملكها وأعرس بها بعين التمر[1]. وفي هذا الخبر إيماء الى أن في عين التمر إذ ذاك ما كان يوافق الامبراطور الفارسي من مسكن ذي جلالة وفخامة دون سائر البلاد القريبة من طرف البادية ، فلعله أعرس بها في الأخيضر

ومما يدل على أنه كان لعين التمر حصن عظيم هائل قول البلاذري في غزو خالد بن الوليد لغربي العراق في السنة التي ذكرناها آنفاً — أعني سنة ١٢ هـ — : « ثم أتى خالد عين التمر فألفى بحصنها وكانت فيه مسلحة للاعاجم عظيمة ، فخرج أهل الحصن فقاتلوا ، ثم لزموا حصنهم فحاصرهم خالد والمسلمون حتى سألوا الأمان فأبى أن يؤمنهم وافتتح الحصن عنوة وقتل وسبى ووجد في كنيسة هناك جماعة سباهم فكان من ذلك السبي حمران بن أبان ابن خالد التمري . وسيرين أبو محمد بن سيرين واخوته ومنهم يحيى بن سيرين وأنس بن سيرين ومعبد ابن سيرين وهو أكبر اخوته . وكان من ذلك السبي أيضاً أبو غرة جد عبد الله بن عبد الاعلى الشاعر ويسار جد محمد بن اسحاق صاحب السيرة. وكان منهم مرّة أبو عبيد جد محمد بن زيد ابن عبيد بن مرّة ونفيس[2] بن محمد بن زيد بن عبيد . ونصير أبو موسى بن نصير صاحب المغرب » ثم ذكر أن هلال بن علقة بن قيس بن البشر النمري كان على النمر بن قاسط بعين التمر فجمع لخالد وقاتله فظفر به (خالد) فقتله وصلبه[3] ، وفي رواية ابن الكلبي أنه علقة ابن قيس بن البشر لا ابنه هلال » .

---

(١) أبو الفرج الاصفهاني في « الاغاني ج ٢ ص ١٤٠ ، وما بعده ، طبع دار الكتب

(٢) أي وجد قيس بن محمد ، فنفيس معطوف على محمد بن زيد ١٣ فتوح البلدان « ص ٢١٨ — ٢١٩ » من الطبعة المذكورة

وقد فصّل أبو جعفر الطبري خبر فتح الحصن وذكر أن بعين التمر يومئذٍ من القراد الفارسيين «مهران بن بهرام بن جوبين» في جمع من العظيم من العجم، ومن العرب عتة ابن أبي عقبة قيس في جمع عظيم من النمر وتغلب وإياد ومن لفّ لفهم، فلزم مهران عين التمر وألقى بأفناء العرب على خالد وأصحابه حتى يهتموا ثم يلقاهم هو وأصحابه العجم، وكان مهران مرابطاً في حصن عين التمر الذي قلنا انه الاخيضر مع رابطة [1] فارس، وهزم جيش خالد العرب المذكورين ومن معهم من العجم وتراجعت فلولهم الى الحصن واقتحموه، فاعتصموا به. ولما جاء الخبر مهران بهزيمة العرب الذين جعلهم وقاية له هرب في جنده وترك الحصن، وأقبل خالد وأصحابه حتى نزل على الحصن وظنّ المعتصمون به أنه يغير على ما كان خارجه ويتركهم لوجهه كعادة العرب. ولكن خالداً حاوطهم وواثبهم وحاصرهم وصابرهم فخارت نفوسهم بعد أن رأوا هروب العجم فأجابوا خالداً الى حكمه فيهم واستسلموا اليه فأمر من في الحصن من الرجال وضرب أعناقهم أجمعين. قال الطبري «وسبى خالد كل من حوى حصنهم وغنم ما فيه ووجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهن فقسمهم في أهل البلاد، منهم أبو زياد مولى ثقيف [2] وحريث وعلاثة. ومنهم عمير وأبو قيس» ثم ذكر أن منهم فلاناً وفلاناً [3].

فقول البلاذري إن في حصن عين التمر يومذاك مسلحة عظيمة للاعاجم وذكره هو والطبري لكنيسة فيه وجدها خالد بن الوليد مغلقة على أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل وقول الطبري ثانية إن في حصن عين التمر رابطة من جنود العجم وضمهم فيه كسرى كل ذلك يقرّب منا أوصاف حصن الأخيضر الحالي. فما تزال الكنيسة قائمة الدعائم واضحة المعالم وهي التي حوّلت مسجداً بعد الفتح الاسلامي، وهي على يمين الداخل لذلك الحصن «راجع التخطيط». ومن الغريب ان الذين ذكروا المسجد لم يكلّفوا أنفسهم تحقيق قبلته، على أن

(١) الرابطة هم الجند المرابطون. وقد ذكر الطبري في موضع آخر بأن خالداً «لما سار خالد حتى نزل على عين التمر فأغار على أهلها وأصاب منهم ورابط حصنها بها فيه مائة كان كسرى وضعهم فيه حتى استنزلهم فصالحهم على ما سبى من عين التمر ومن سبى من تلك الرابطة سبايا كثيرة وبعث بها الى أبي بكر» (ج ٤ ص ٤٠ من طبعة المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢١ هجرية). أما من ذكرهم البلاذري (ص ٢٤٦) والطبري (ج ٤ ص ٢٩، ٤٠ من

لا ينكر أن في حضرة [١] المسجد قد أدخل شيء من الآجر وهو مادة جديدة بالنسبة الى مادة الحصن وهي الحجارة غير المهندمة .

سكن العرب حصن عين التمر أي حصن الاخيضر بعد الفتح الاسلامي وتداولوه ولاسيما أهل البادية منهم كبني أسد وكان قد تحصن فيه ضبّة بن محمد بن يزيد العبي [٢] ولبث يخيف السبل وينهب القرى ويستبيح الأموال وغيرها وكلما طلب دخل الحصن واعتصم به ، وله قصة مع أبي الطيب المتنبي ، قال أحد جماع ديوانه :

« كان قوم من أهل العراق قتلوا ابن يزيد [٣] العبي ... ونشأ له من امرأته ولد بالعين [٤] يسمى ضبة يغدر بكل من نزل به وأكل معه أو شرب . واجتاز أبو الطيب بالطف فنزل بأصدقاء ، وصارت خيلهم إلى هذا العبد واستركبوه فلزمه المسير معهم فدخل العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه أياماً لا صلاح له إلاّ شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم ويسمي أبا الطيب [٥] ويشتمه وعلم أنه لو مسه بلم معرضاً لم يعمل فيه عمل التصريح ولم يفهم ، فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال في جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة :

ما أنصف القوم ضبّة وأمه الطرطبة [٦]

وفي نسخة أخرى « وسار أصدقاء أبي الطيب لمحاربة هذا العبد وسألوا أبا الطيب المسير معهم فأجاب الى ذلك فلما نزلوا تحت حصن هو فيه جعل يشتمهم أقبح شتيمة ويسبّ أبا الطيب باسمه فسألوا أبا الطيب أن يهجوه [٧] »

وقد ظلّ ضبة الاسدي يفسد في تلك الارض نيفاً وثلاثين سنة ، وفي سنة ٣٦٩ تقدم عسكر الى عين التمر في طلب ضبة بن محمد الأسدي . قال مسكويه : « وقد مرّ ذكره وانه من يسلك سبيل الدُّعار ويسفك الدماء ويخيف السبل وينهب القرى ويبيح الأموال والفروج وانتهك حرمة المشهد بالحائر . فلما أطلّ عليه العسكر المجرد هرب بحشائته الى البادية وأسلم أهله

(١) قال في أساس البلاغة « وجمع الحضرة يريد به دار ، وهي عدة البناء من الآجر والجص وغير هذه

(٢) العبي نسبة الى « عين التمر » وهي نسبة ابي الشغبة وغيره وفي ديوان المتنبي الجديد الطبع ص ٥١٠ « العبي » وهو خطأ

(٣) قدمنا ان اسمه (محمد) (٤) اي عين التمر (٥) اي كان يسب المتنبي خاصة

(٦) ديوان المتنبي : مخطوط في دار الكتب الوطنية بباريس ، رقم ٣٠٩١ في الورقة ١٩٤ و ١٩٥

(٧) المخطوط المرقوم بـ ٣٠٩٣ في الورقة ١٣٢

دعامة وخيرة في داخل حصن الأخيضر
« الآجر أو الطوب من الدور العباري الثاني »

وحرمه فحصل أكثرهم في الأسر وملكت عين التمر[١] ». وقال أبو الفرج ابن الجوزي : « وكان من أكابر الدعار وقد قتل النفوس ونهب الأموال وتحصن بعين التمر نيفاً وثلاثين سنة والوصول اليها يصعب فلما أطلّ عليه هرب[٢] ... » وقال ابن الاثير « وفيها أرسل سرية الى عين التمر وجهاضبة بن محمد الأسدي وكان يسلك سبيل اللصوص وقطاع الطريق فلم يشعر إلاّ والعساكر معه ، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريداً وأخذ ماله وأهله وملكت عين التمر وكان قبل ذلك قد نهب مشهد الحسين فعوقب بهذا »[٣] .

ويستبين من الأخبار التي ذكرناها أن ذلك الداعر القاطع للطريق كان يأوي الى حصن حصين ويعتصم وراء سور متين طوال تلك السنين ، بحيث أن الملك عضد الدولة الذي دوّخ البلاد شرقاً وغرباً أنفذ اليه عسكراً لمحاصرته والاستيلاء على حصنه ولكنه هرب ولم يتحصن كما كانت عادته لاعتقاده أنهم يقتحمون عليه الحصن .

وفي أواسط القرن الخامس للهجرة كانت السيطرة في الطفوف لقبيلة خفاجة وذهبت سلطة بني أسد ، وتصرّف في حصن عين التمر أعني حصن الاخيضر رؤساءهم ، ومنهم محمود ابن الأخرم الخفاجي ، نسبة الى قبيلة خفاجة[٤] ، وقد ظهر لي أنه في أيام استيلاء الخفاجيين على ذلك الحصن العظيم أحدثوا فيه أبنية وزيادات عمارية وترميمات وتحصينات ، حتى أصبح يسمى « قلعة عين التمر » وكان محمود بن الأخرم رئيس قبيلة خفاجة قد قصد الى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بمصر ورجع في سنة ٤٤٨ ومعه أموال فخطب بشفاثا[٥] وعين التمر وبالكوفة للمستنصر المذكور[٦] ومعنى ذلك أنه خطب له بحصن الأخيضر كسائر بلاده واستعد للاحداث . وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٨ هـ وفيها خطب محمود الخفاجي للمستنصر العلوي صاحب مصر بشفاثا والعين وصار في طاعته »[٧]

---

(١) تجارب السلف ج ٦ ص ٤١٤ (٢) المنتظم ج ٧ ص ١٠٠ — ١

(٣) الكامل في حوادث سنة ٣٦٩ (٤) قال القلقشندي في نهاية الارب في أنساب العرب ص ٢٠٧ : بنو خفاجة بطن من بني عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة ... وقد انتقلوا في آخر الايام الى العراق والجزيرة وكان لهم بنو الفرات دولة ...

(٥) قلت في تلك الأيام شفاثا من قرى عين التمر ولا تزال تعرف بهذا الاسم في أيامنا ومنهم من يسميها (شفاثا) مصغراً . (٦) ابو الفرج بن الجوزي في (المنتظم ج ٨ ص ١٧٣) ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، مخطوط رقم ١٥٠٦ بدار الكتب بباريس في الورقة ١٨ (٧) الكامل في حوادث سنة ٤٤٨

ولكن محموداً سرعان ما نقض عهده للمستنصر الفاطمي وأصلح أمره مع الخليفة القائم بأمر الله العباسي والسلطان طغرلبك السلجوقي [١] . ثم احتلّ أبو الحارث ارسلان البساسيري بغداد والعراق وخطب للمستنصر المذكور وجعل محمود بن الاخرم الخفاجي أميراً على الكوفة وسقي الفرات [٢] . وقال سبط بن الجوزي في حوادث صفر من سنة « ٤٥٠ » : وفي هذا الشهر أنفذ أهل شغانا وقلعة العين التي لمحمود بن الاخرم أمير بني خفاجة وهي معقل الخفاجيين الى السلطان طغرلبك فسلموها اليه فأعطاها أنو شروان ابن زوجته فتملكها أصحابه [٣] » فقد استبان من قول المؤرخ «قلعة عين التمر» و «معقل الخفاجيين» وغير ذلك نخامة تلك القلعة وسعتها وحصانتها ومتانة بنيانها .

وفي سنة « ٤٥٢ » خلع السلطان طغرلبك على محمود بن الاخرم الخفاجي وردّت اليه إمارة بني خفاجة وولاية الكوفة وسقي الفرات وضمن خواص السلطان هناك بأربعة آلاف دينار كل سنة ، وكان قد وليها رجب بن منيع الخفاجي فصرف عنها [٤] . وفي سنة « ٤٥٥ » قتل رجب بن منيع المذكور ورجل آخر محمود بن الاخرم الخفاجي بأرض الجامعين ونهب جارية له كانت حظية عنده ، قال سبط بن الجوزي «وأخذها الى قلعة شغانا ... وألقت نفسها من أعلى القلعة فهلكت [٥] ». وإنما عنى المؤرخ بقلعة شغانا قلعة عين التمر على ما ظهر لنا فانا لم نجد لشغانا قلعة في التاريخ ، والسبب في ذلك تقارب البلدتين إحداهما من الأخرى — كما أشرنا اليه في أول المقالة — وبذلك تكون الجارية قد ألقت نفسها من حصن الاخيضر وقد ذكرنا أن سمكه أي ارتفاعه واحد وعشرون متراً وقلّما ينجو من الموت من يرمي نفسه من هذا السمك الى الأرض .

وكونُ الاخيضر معقل الخفاجيين — على ما قدمنا ذكره — يوضحُ لنا القول الشائع في قبيلة الرّولة ببلاد الشام من أنّ الأخيضر هو عندهم « قصر الخفاجي » [٦] ويظهر كلّ الظهور أنّ الدلائل والمظافر الحوادث والأخبار على أنّ حصن الاخيضر الجليل هو حصن

(١) الكامل في سنة ٤٤٩ : (٢) المذكور في سنة ٤٥٠ (٣) مرآة الزمان في المخطوطة المذكور (الورقة) ٤٥ (٤) الكامل في حوادث سنة ٤٥٢ (٥) مرآة الزمان في المخطوطة المذكور (الورقة ٩٠)
(٦) A. Musil Rwala Bedouins. p. 155, 243

عين التمر العتيق ليسا من الاتفاق ولا الشبهات ولا بنات الظنون .

وفي التاريخ من الحوادث ما يدل على أن حصن عين التمر أي قلعتها على تسمية سابقة لبعض المؤرخين ، قد تضعضع وفقد من مناعته وحصانته ؛ ففي سنة ٦٩٣ هـ أنفذ بايدر وأحد القواد المغول بالعراق في زمان السلطان كيختو الايلخاني جماعة من جنده الى « عين التمر » والكبيسات فنهبوا الرعيّة وسبوا وأسروا وغنموا كل منكر [١] ، وآخر ما وجدنا فيه ذكر العين ديوان الشاعر الكبير صفي الدين عبد العزيز الحيلي فقد جاء في « باب المراثي » منه أن صاحبه رثى صديقاً له رتب ناظراً ببلد العين بالعراق وتوفي بها قال :

وأصبح العين بلا ناظر كأنها العين بلا عين [٢]

الخاتمة

وخاتمة البحث أن « حصن الاخيضر » القائم حتى اليوم بالعراق على خمسة وخمسين كيلومتراً من كربلاء غربي الفرات من الحصون العتيقة الفخمة الهائلة لا نجد له مثيلاً في البلاد ولا سيما العراق ، فهو متميز بكونه مبنيًّا من الحجارة الصم الصلاب المرصومة المعروفة بالرضام [٣] ، على قلتها بل ندورها في أرض الحصن ولا يشبهه في ذلك إلاّ مدينة « الحضر » بين دجلة والفرات فهي مبنية بالرجام المهندمة . وتبين أنّ حصن الاخيضر عتيق جدًّا بمادة بنائه وطرازه وعظمه وسمته ونظامه فهو من الحصون التي لا تبنى بسنة واحدة ولا تستطيع بناءه إلاّ دولة كبيرة قوية ، وعلم أن موضعه كان ميناء للطرق التجارية والطرق الحربية بين الشام والجزيرة والعراق ، وأنه إنما بني للدفاع عن الامبراطورية الساسانية واسترجح كون بنائه على عهد سابور ذي الاكتاف « ٣١٠ — ٣٨١ » هـ وفيه مشابه من إيوان كسرى ، ثم أدخل في بنائه الآجر . وهو معروف عند العرب بحصن عين التمر ، وقد فتحه خالد بن الوليد وبقي في أيدي عرب العراق ورمم غير مرة وأضيفت اليه عمارات وزيدت فيه بنايات .

(بغداد) مصطفى جواد

---

(١) ابن الفوطي في الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (ص ٤٧٦) من طبعتنا

(٢) ديوان صفي الدين الحلي (ص ٢٢٥ — ٦) طبعة مطبعة الآداب ببيروت ١٩١٠ (٣) الرضم والرضام جميعاً مصدر ميمي كما هنا وقد كثر في الرجام